كتاب تعلم من أصولنا الثقافية : منهج قراءته (*)

د. سيد أحمد عثمان (**)

نبدأ تنور قلوبنا بذكر الله ، ونعطر دروبنا بالصلاة والسلام على خير نبى وخير هاد ، فانه بذكر الله تطمئن القلوب ، وتسكن فتفقه ، وانه بالصلاة والسلام على الأسوة الحسنة تشتد العزائم ، وتسدد الخطى على سبيل الرشاد .

واستهل بأن أدعو الله ـ جلت قدرته ـ أن يهبنا بفضله نعما قلبية ثلاثا : **أولها** ـ خلوص النية لله تعالى فى عملنا ، بل جهادنا العلمى ، فلا تشوبه شائبة من تلفت الى غير وجه الله ، أى من تطلع الى غير الحقيقة العلمية التى فيها نفع أمتنا ، التى هى أمانتنا ، **وثانيها** ـ التثبت العلمى بحيث نتحرك فى عملنا ، بل جهادنا العلمى ، حركة الواثق المتمكن من كل جانب من جوانب العلم ، ومن كل منحى من مناحيه ، فهذا هو دأب الراسخين فى العلم ، ورجل العلم المسلم أولى بهذا الرسوخ ممن سواه ، وثالث النعم التى أدعو الله سبحانه أن يفيض علينا بها هى نعمة الرفق الذى يزين سعى رجل العلم المسلم ، والأنارة التى تضبط حركته ، والصبر الذى يحكم تقدمه ، ألا يعجل ، أو يستعجل ، فان من طبيعة العلم الحق الانبثاق الوديع ، والنمو المتئد، والتحول الرصين .

أمـا بعد ،

فان ذاتيتنا الثقافية الاسلامية المتميزة انما تتحقق بأن ننهج فى سبيلها نهجين ، **أولهما موصول** بأصولنا الثقافية ، وجذورنا الفكرية ، ومصادرنا العلمية الاسلامية ، ذلك لأن هذا هو قلب الذاتية المعطيها حياة وقوة ونماء ، والواهبها صبغة بها تتفرد ، وصيغة بها تتمايز ، **والنهج الآخر** نهج **متصل**

(*) حديث قدم فى مساء الاحد ٢٥ ذو القعدة ١٤١٣ هـ (١٦ مايو ١٩٩٣) بكلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض .

(**) أستاذ علم النفس التربوى بكلية التربية ، جامعة عين شمس .

بثقافة ، وفكر ، وعلم العصر الذى نعيشه ونعايشه ، ولايمكن ، ولايسمح لنا اسلامنا ، أن نغفل عنه ، أو نهمله ، أو ندير له ظهورنا ، أو نستهين به ، أو ننقطع عنه ٠

موصوليتنا بثقافتنا الاسلامية هى توكيد وتعميق لذاتيتنا ، **واتصالنا** بثقافة عصرنا هو اشتداد وتفتح لذاتيتنا ٠ وانه من **هذا التمازج** بين الأصول التى تجرى فى عروق فكرنا ، وبين سياق العصر الذى نتنفس هواءه ، من هذا التمازج المتكامل ، تنتعش فى الذاتية الثقافية المسلمة روح الابداع ، اذ لايمكن أن يكون ابداع ذاتى ، ولاتبدع الذات ، الا من عمل هذه الروح المنتعشة بعبق ماضيها الذى فيه بذور النماء ، وألق حاضرها الذى فيه بوارق الرجاء ٠

وقد شاءت ارادة الله سبحانه أن أدخل دائرة هذا التمازج الخصيب بين نتاج ثقافتنا العلمية الأصيلة ، وبين سياق علمنا المعاصر ، عندما هديت الى عمل علمى لشيخ من شيوخنا الذى عنى بالتعلم ، ووضع فيه كتابا قائما برأسه هو كتاب «تعليم المتعلم طريق التعلم» ، لشيخ التعلم القديم برهان الاسلام (أو برهان الدين) الزرنوجى ٠

أما الشيخ الزرنوجى ، فهو فقيه حنفى المذهب ، عاش فى اقليم خراسان فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى (وفاته حوالى ٦٢٠هـ ـ ١٢١٣ م) ٠ وأما كتابه «تعليم المتعلم طريق التعلم» فهو الكتاب الوحيد من بين كتب التربية الاسلامية القديمة الذى **أفرده** صاحبه تماما لخصوص التعلم٠ وللكتاب نسخة كتبها الزرنوجى باللغة الفارسية ، الى جانب تلك التى كتبها باللغة العربية ، والكتاب مترجم الى اللغة التركية ، وترجم الى اللغة اللاتينية ، وترجم الى اللغة الانجليزية ، وله خلاصة باللغة الفرنسية ، وله عدد من الشروح القديمة ، وقد طبع الكتاب أكثر من عشرين طبعة ، وأشير بوجه خاص الى طباعته فى ألمانيا ، باللغة اللاتينية ، فى مدينة ليبزج خاصة، مرتين ، فى ١٧٠٩ وفى ١٨٣٨ ٠

هذا هو كتاب الزرنوجى الوحيد ، وهو الذى كان واسطة بينى وبين روح ذاتيتى الثقافية الاسلامية ، والذى قرأته قديما قراءة مجملة أحسست فيها أن بين ثناياه كنوز من المعرفة العلمية فى التعلم ، وطوى الزمن سنوات

فى اثر سنوات ، ثم عدت اليه بعد عشرين عاما ، محاولا أن أعيد القراءة بعين أكثر بصرا ، وبأدوات أكثر فعالية ، فكيف كان **منهجى** فى هذه القراءة الثانية التى انتهيت منها الى دراستى الأولى عن التعلم عند برهان الاسلام والتى ظهرت عام ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م ٠

يتلخص هذا المنهج فيما يلى :

أولا ـ أن أقرأ هذا الأثر الجليل قراءة اقبال ، وحب ، وشوق ٠ وليس فى هذا مجافاة للموضوعية ، بل انه ترشيد للموضوعية ، وليس هذا من الذاتية ، لأن فيه انضاجا للذاتية ٠ ولايمكن أن أتناول مثل هذا الأثر ببرود الموضوعية ، وتباعدها ٠ أن هذا الأثر ينتمى الى ، انتماء قلبيا ، انتماء أظلمه ان أنا تعاملت معه على أنه موضوع مجرد ، وحقه على أن أعانقه عناق الذات للذات ٠ واننى بهذه الروح المقبلة ، قد وجدت ، بحمد الله : أن الكتاب كان يتفتح أمامى ، ويكشف لى عن أغواره ، ويفيض لى من أسراره ، مامكننى من أن استخلص منه ، أو استبصر فيه نسقا من التعلم متكاملا فى الساعة ، متماسكا فى تنوعه ، متسقا فى تعدده ٠

ثانيا ـ وان موقفى المقبل ، المحب ، المشوق هذا حرك عندى حاسة **الذوق** فى قراءة الكتاب ٠ انه ذوق علمى ، فيه مسحة فلسفية ، وفيه لمحة فنية ، وفيه يقظة وجدانية ٠ قراءة الذوق هذه ، مع قراءة الشوق ، أو بقراءة الشوق ، للأثر العلمى الذى حمله الزمن ، وحمته الحكمة ليصل الينا عبر الدهور ، هذه القراءة هى التى تساعد على أن تكون قراءة آلفة قبل أن تكون عارفة ، قراءة متمثلة قبل أن تكون محللة ٠ هذه القراءة هى التى تميز بين قراءة المستشرق الغريب ، الذى هو أعجمى الذوق للعربية قبل أن يكون أعجمى اللسان فيها وبين قراءة الابن المنتمى الى أبيه ٠ وقد قرأ كتاب الزرنوجى مستشرقان هما ابل وفون جروبناوم Ebel Ivon Grunbaum (١٩٤٧) ، وانتقدا الزرنوجى انتقادات تسىء الى منهجهم الفكرى ، ونظرتهم العلمية ، أكثر مما تسىء الى الزرنوجى وكتابه ٠ نقدهما فيه ضعف شديد فى أصول المنهج التاريخى ، وفيه تحامل متعجل على الرجل ٠ وقد تأثر بموقفهما هذا ، مع الأسف ، كثير ممن كتبوا عن الزرنوجى ، من العرب المسلمين ، دون أن يكلفوا أنفسهم أن يتحرروا من الحكم الأجنبى ، والرأى الأعجمى ، ويعودوا

ليقرأوا بأعينهم ، ويحكموا برأيهم ، ويحكموا ذوقهم فى قراءتهم للكتاب الزرنوجى لاغنى عن عمل الذوق فى التفهم الصحيح للآثار العلمية لعلمائنا القدماء ٠

ثالثا — التزمت فى قراءتى ، أو دراستى ، لكتاب الزرنوجى بما تعرض له الشيخ لم أحاول أن أدخل فى آرائه أيا من الفكر النفسى المعاصر فى التعلم ، وانما تحريت أنى استشف من كلامه وتحليله مايتصل بعملية التعلم فى حقيقتها ، وفى أوسع معانيها ، منظما آراءه ، ومنسقا اياها فيما أسميته «نسق التعلم عند الزرنوجى» ، وهو مكون ، كما استبصرته ، أو استكشفته، أو كما أستعلن لى وتكشف ، مكون من عناصر رئيسية ، وكل عنصر أدرجت تحته عناصر فرعية ٠ وعناصر النسق الرئيسية هى :

التأهب — أدب النفس — الدافعية — الاختيار — الأنشطة — الحفظ والنسيان — صحة البدن — اجتماعية التعلم ٠

رابعا — وكما لم أفرض على فكر الزرنوجى فكرا غريبا عنه ، لم أحاول أن أقومه ، أو أحكم عليه ، بمعيار معاصر ، وانما فى سياق عصره ٠ حتى اننى لم أسم ما استخلصته من تصور من كتاب الزرنوجى ، لم أسمه «نظرية»، لأن النظرية أداة منهجية حديثة من أدوات العمل العلمى ، وأظلمه ، وأظلم الحقيقية التاريخية والعلمية ، لو أننى أطلقت لفظ نظرية على ماقدمه ٠ لابل نحكم على نتاج علمائنا ، أعلامنا ، فى ضوء ماقدموه ، وماتقدموا به من فكر فى زمانهم ، سواء فى الفكر الاسلامى ، أو الفكر العالمى ٠ وقد استطعت، بتوفيق من الله ، أن ألمس موضعين كان لتصور الزرنوجى عنهما آثار بعيدة ، الموضع **الأول** هو كلامه على **الاختيار** ، الذى أرى أنه أساس من أسس نظام الاختيار فى المواد الدراسية ، والاستاذ ، وهو النظام الذى يأخذ به كثير من معاهد العلم المعاصرة ، ومايسمى بنظام الساعات المعتمدة ٠ أما الموضوع **الآخر** فهو ماذكره الزرنوجى من أن طالب العلم يحتاج الى أن يكرر **ماحفظه حديثا** أكثر من تكرار ماحفظه سابقا ٠ وأرى أن فكرة الزرنوجى هذه قد أثرت بشكل ما على دراسات ابنجهاوس فى التذكر ، وهى دراسات تجريبية، ولاننسى أن ابنجهاوس كان فى مدينة ليبزج ٠ وأن كتاب الزرنوجى طبع فيها مرتين ، وكان مترجما الى اللغة اللاتينية وأن اللغة اللاتينية هى لغة التعلم فى زمان ابنجهاوس (١٨٥٠ — ١٩١٩) ٠

خامسا ـ اننى ، وان كنت التزمت فى استخلاص نسق التعلم عند الزرنوجى بكلامه ، فاننى تحررت فى النظرة الى النسق وعناصره ، محاولا أن أربط بين هذه العناصر والدراسات الحديثة فى علم نفس التعلم ، فكأننى احتفظ للنسق بانتمائه الكامل الى الزرنوجى ، ولكننى أتحرك به ، فى استقلال له ، فىسياق علم النفس المعاصر ، وكان أكثر هذا فى تعاملى مع التأهب ، والدافعية ، والأنشطة ، والحفظ والنسيان ٠

غير أن الزرنوجى **تفرد** ، وانعكس تفرده هذا فى النسق الذى استخلصته، بأن تناول أمورا كانت مغفلة ، أو لم تحظ بحقها من الاهتمام فى دراسات التعلم المعاصرة ، منها مثلا ، **أدب النفس** (وهو عنصر دافعى أخلاقى) ، **وصحة البدن** وعلاقتها بالتعلم ، **واجتماعية التعلم** ، وهى مصطلحات من وضعى لأدرج تحتها تناول الزرنوجى لها بتحليله وأسلوبه هو ٠

سادسا ـ ولم أكن مستطيعا ، ولاتسمح لى أمانة العلم ومسئولية التاريخ ، أن أقف أمام دعاوى قذف بها المتعجلون فى وجه الزرنوجى وكتابه وقفة ساكنة سالبة ، لأن معنى هذا أن مافيها من باطل صحيح ـ فنهضت فى أوبة من أوباتى الى الزرنوجى وكتابه ، مفندا هذه الدعاوى ، التى منها :

(أ) أن كتاب تعليم المتعلم ٠٠ صغير الحجم ، فى حيث أن هذه ميزة للكتاب ، وليست مأخذا عليه ، لأن الرجل ، بالتزام منهجى دقيق ، لم يكن يستطرد كما هو شأن ومصنفى الكتب القدماء من موضوع الى موضوع آخر، وانما كان يحيل القارىء ، طالب العلم ، الى المصادر التى يمكن أن يجد فيها تفصيلا لما يشير اليه ملخصا فى استيفاء ، كما فعل وهو يتكلم على صحة البدن أو الأخلاق ٠

(ب) أن الزرنوجى لم يأت بجديد فى كتابه ، وان كان الحق أنالزرنوجى لخص بشكل بالغ الأحكام والوضوح ، ماسبقه من أفكار عن التعلم بصفة خاصة ، وقدم بهذا التلخيص عملا جامعا ، ونافعا ، ودافعا للمعرفة العلمية فى زمانه ٠

(جـ) أن فى كتاب الزرنوجى نزعة تواكل ٠ وذلك من كلامه على التوكل فى طلب العلم (وهو عنصر فرعى وضعته ضمن عنصر رئيسى هو التأهب) ،

ومن ذكره أن على طالب العلم أن يحمد الله كلما أصاب قدرا من العلم أو الفهم · عاب عليه المتعجلون هذا ، فى حين أن دور التوكل أكيد فى التأهب ، وفى دافعية التعلم ، ودور حمد الله وثيق بما فيه من تعزيز ذاتى للمتعلم ·

(د) أن الزرنوجى عامى ، ولامنطقى فى تفكيره ، وذلك استنادا الى بعض الأمور التى تميل الى جانب الخرافة وردت فى كتاب الزرنوجى فى الفصلين الأخيرين من كتابه · ولو أن ناقديه رعوا أصول المنهج التاريخى ، لما تعجلوا فى هذا الادعاء ، ولأيقنوا أن مافى هذين الفصلين من أمور تجافى العقل ، وتنافى المنطق ، انما هى أمور دخيلة على أصل الكتاب ، لأنها غير متسقة مع سائر أجزاء الكتاب ، ولامتفقة مع مكانة الزرنوجى كفقيه حنفى تتلمذ على أمام من أئمة المذهب الحنفى هو الامام الفرغانى صاحب كتاب «الهداية» ·

سابعا وآخرا - وكان من الطبيعى ، وأنا أرد كتاب شيخنا الزرنوجى الى الحياة ، أن أدمجه فى تيار الحياة الفكرية المعاصرة عندنا ، وأدخله فى سياق الدراسة العلمية المنظمة للتعلم بين دارسينا · ان دراستى للزرنوجى ليست غاية فى ذاتها ، انما هى واسطتى الى أصول فكرنا ، جذور ثقافتنا ، أو هى واسطتى الى ذاتيتى · ولا أقف عند الزرنوجى ، أو أقف به ، بل أدمجه بحيث يتحول الى جزء من نسيجنا العلمى فى علم نفس التعلم · هذا الدمج الذى لايمكن أن يكون الا بعد الفهم والتفهم ، ولايمكن الا أن يكون وفق أصول المنهج العلمى للنظرة والتحقق فى علم النفس المعاصر بعامة ، وعلم نفس التعلم بخاصة · وتحقيقا لهذا الدمج ، أو البدء به استطعت أن أحدد تساؤلات أو مشكلات ، مما يثيره تناول الزرنوجى للتعلم ، تصلح لأن تكون موضوعات بحث حديث من جانبنا ، **من هذه مايلى :**

(أ) النية ودورها فى التعلم · بل دورها فى الحياة النفسية الروحية للانسان عامة ·

(ب) أدب النفس (العنصر الثانى من الشق) وفيه : تعظيم العلم وأهله، والورع ، انه نوع **الدافعية الأخلاقية** فى التعلم ·

(جـ) أنواع الدافعية ، كما استخلصتها من دراسة الزرنوجى · وخاصة دافعية المشاركة ·

(د) ما أكثر مايشير الزرنوجى ، ويؤكد أهمية **التأمل** ، فما دور هـذا فى التعلم ؟

(هـ) الاختيار وفعالية التعلم ٠

(و) تكرار ماحفظ مؤخرا أكثر مما حفظ سابقا ، وعلاقة هذا بالحفظ ، ثم ماقد يكون أثر به فى دراسات ابنجهاوس ٠

(ز) قراءة القرآن الكريم نظرا تزيد الحفظ ، قضية تحتاج استقصاء ٠

وأخلص من هذا الى أننا نحيا وجودا ووجدانا ، فكرا وروحا ، عندما نحيى أثرا علميا من نتاج ثقافتنا الاسلامية ، وأننا اذا نحيا بهذا انما نلتقى بأصيل ذاتنا ، ودعم فريد ذاتيتنا ، ونعمق وثيق ثقتنا بذاتنا ، فتنفتح بها ، وتتفتح بنا ، على آفاق من التجديد الفكرى ، والابداع العلمى ، مانطمئن معه الى أننا نرسى قواعد حركة علمية اسلامية ناهضة ، يقوم عليها بنيان أمتنا فى مستقبلها ، وتحظى باحترام أهل العلم فى أرجاء العالم ٠ حركة علمية تعتز بانتسابها الينا ، ونعتز بانتسابنا اليها ٠ متوكلين فى هذا ، من قبل ومن بعد ، على الله ، واثقين من تأييده ونصره ، «ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره ، قد يجعل الله لكل شىء قدرا» (الطلاق : ٣) ٠ صدق الله العظيم ٠